بارانويا السياسة الأمريكية

محمد يوسف عدس

منذ عقود أربعة ألقى المؤرخ "ريتشارد هوفْشتَاتْر محاضرة بجامعة أكسفورد حول بعض الخصائص الكامنة في السياسة الأمريكية .. [في ذلك الوقت] لم يلتفت إليها المؤرخون أو لم يعيروها ما تستحق من اهتمام .. وكان عنوان المحاضرة هو "أسلوب البارانويا في السياسة الأمريكية"، وتحت هذا العنوان نفسه نشرت له جامعة أكسفورد سنة ١٩٧٩كتابا أضافت إليه محاضرات أخرى له في الموضوع.

والبارانويا -في علم النفس- مرض عقليّ يتميّز بتسلُّطِ نوع من الأوهام على أفكار المريض، يؤمن فيها إيمانا راسخًا بأن كائنًا ما يعاديه ويتربص به ، وأنه واقع تحت الاضطهاد والملاحقة بصفة دائمة .. ولا تقتصر البارانويا على الأفراد فحسب ؛ فهي مرض جمعيّ قد تعاني منه مجتمعات بكاملها .. كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة.

يؤكد "هوفشتاتر" أن أسلوب البارانويا ظاهرة متكررة في السياسة الأمريكية تأتي على شكل موجات أو "نوبات" متباينة الحدّة عبر التاريخ ، مما يوحي بأن هذه السياسة تعاني من داء مزمن يتعذر استئصاله..

لعلنا في ضوء هذه الفكرة نستطيع أن نفهم المناخ العقلي الذي كان مسيطرًا على الإدارة الأمريكية في أعقاب حادثة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م عندما أعلن الرئيس "جورج دبليو بوش" أن العدو الذي هاجم مركز التجارة العالمي في نيويورك ، كان يستهدف الديمقراطية والحرية والرخاء الذي ينعم به الشعب الأمريكي .. وهو نفسه المناخ العقلي الذي يسيطر على الرئيس الأمريكيّ الحاليّ دونالد ترَمْب" .. وكلاهما (بوش وترمْب) وضع الإسلام والمسلمين في مقدّمة الأعداء الذين ينبغي استئصالهم من العالم..

يتسق هذا الوصف مع نظرية المؤامرة التي تعاقب ظهورها في التاريخ السياسي الأمريكي منذ تسعينات القرن الثامن عشر.. يرصدها "هوفْشتاتر" في كتابه بالتفصيل واحدة بعد الأخرى حتى ينتهي بالمؤامرة الشيوعية التي اتخذها ماك آرثر ذريعة له بعد الحرب العالمية الثانية ليشن حملة تطهير إرهابية شملت العديد من المفكرين والمثقفين والمنظمات الأمريكية ، فأشاع بذلك الرعب بين المواطنين وانتهك الديمقراطية وحقوق الإنسان.

هذه المخاوف والهواجس الملحة التي تكمن في نظريات المؤامرة يمكن فهمها جيدا في إطار التقليد البارانوي في السياسة الأمريكية وهي في الحقيقة تعكس القلق الذي يؤرق قطاعا ربما يكون صغيرًا نسبيا ولكنه يتمتع بصوت مرتفع ومسموع بين الجماهير الأمريكية، ولكي يضرب "هوفشتاتر" مثلا قريبًا على تجليات نظرية المؤامرات التي تعصف بالعقل الأمريكي بين الحين والآخر يستعير قصة (هي في الحقيقة إشاعة قوية

كان الأمريكيون يرددونها في الستينات من القرن العشرين، نشرتها نيويورك تايمز في ٢١ يولية ١٩٦٣..

تقول القصة: "إن خمسة وثلاثين ألفًا من القوات الشيوعية الصينية يحملون أسلحتهم ويلبسون زِيًّاعسكريا بلون أزرق (لون زِيّ قوات الأمم المتحدة) إمعانا في التمويه.. وأنهم يقتربون حثيثا من الحدود المكسيكية حيث يتأهبون لغزو سان دياجو.. وأن الحكومة الفدرالية الأمريكية قد سلمت زمام قيادتها البحرية والجوية إلى كولونيل روسي يعمل في الأمم المتحدة.. وتقريبا كل أمريكي مشهور أو قائد كبير في العالم الحر هو في الحقيقة عميل شيوعي.. وأن الجيش الأمريكي الذي يقوم بالتدريب على حرب العصابات في جورجيا في عملية تسمى "أفعى الماء الثالثة" هو في الحقيقة جيش للأمم المتحدة يلبس الزي العسكري الأمريكي.. تمهيدا للاستيلاء على بلادنا..!".

لاشك أن للمزاج الأمريكي الجديد السائد الآن جذور نبوئية إنجيلية توراتية يروِّج لها جيش من الدعاة الأصوليين ، شَرَعَ يعمل بنشاط غير مسبوق بعد انهيار الشيوعية، فقد أحدث هذا الانهيار المفاجئ أزمة هوية حادة في المجتمع الأمريكي، فمن أين جاءت هذه الأزمة وما هي طبيعتها..؟

لا تستطيع أمريكا أن تشعر بالأمن مالم تخلق لنفسها عدوّا تحاربه ، وقد أخذ الاتحاد السوفييتي الشيوعي هذا الدور واستقر في الوعي الأمريكي عقودًا طويلة باعتباره الشر المحض .. الذى يعادى الخير المحض الذى تمثله أمريكا .. ولكن باختفاء الخطر الشيوعي فجأة انكسرت هذه الدائرة وحدثت الأزمة ، ومن ثم شرع الأمريكيون يبحثون عن عدو آخر يتقمص دور الشيطان الأكبر ويكون على درجة من الشر والضغينة تؤهله لكي يضطلع بدور الشيوعية التي تبخرت.

كان عقد التسعينات سنوات ارتباك في أوساط الأصوليين الأمريكيين الذين أجهدوا أنفسهم في البحث عن عدو بديل مقنع ينطبق عليه نبوءة "نهاية الزمن" لتوجيه النضال النبوئي ضده.. ولم يكن الأصوليون وحدهم هم الذين يبحثون عن عدو مناسب يوجهون إليه طاقة الغضب ويعيدون به ذلك التوازن المفقود ، فكانت أجهزة الاستخبارات في أوج نشاطها وكانت المناقشات الحامية تدور في حلف الأطلنطي وفي شركات صناعة الأسلحة العملاقة، والتحق بالركب كُتَّابٌ انتهازيون صهاينة من أمثال صامويل هانتِنْجتون...جاءوا يضخون أفكارهم السامة لتوجيه الانتباه إلى العدو الجديد، وكان الاتفاق مذهلًا فقد أجمع الكل على أن العدو المناسب هو الإسلام.

يعتبر "بات روبرتسون" مهندس الاستراتيجية الجديدة لانْبثاق الأصولية البروتستانتية، وهو مع مجموعة أخرى من المفكرين الدينيين يتحملون مسئولية إحياء البارانويا التقليدية في السياسة الأمريكية التي نشهد إفرازاتها الحالية عند اليمين السياسي المتطرف الذي يحكم الولايات المتحدة، وفي ذلك يقول الكاتب الصحفي "مايكل ليند" في مقال له نشر في "نيويورك ريفيو أوف بوكس" سنة ١٩٩٤ بأنه لم تظهر في التاريخ

الأمريكي الحديث حركة شعبية متطرفة في السياسة الأمريكية بهذه القوة التي ظهر بها التحالف المسيحي الأصولي الذي أنشأه بات روبرتسون.

ويصف لنا المناخ الذي ساعد على انتشار هذه الحركة والتمكين لها في المجتمع الأمريكي، وهو مناخ سادت فيه الاضطرابات الاقتصادية وشاع القلق في الحياة الأسرية لهذه الأمة .. وهو يعترف بأن الأزمة الاقتصادية التي تمر بها أمريكا أقل حدة من سابقتها التي حدثت في ثلاثينات القرن العشرين، ولكن لا ينبغي الاستهانة بحدة القلق الذي تشعر به الطبقة العاملة خصوصا في مجال الصناعة التي أسرعت بإعادة هيكلة نفسها لتواجه المنافسات الرهيبة التي جاءت من الشرق الأقصى والعالم الثالث، فقد بدأت هذه المناطق تنتج نفس السلع بنفس الجودة ولكن بأسعار أرخص وبقدرة على الانتشار أوسع.

ولذلك يرى المراقبون أن غياب الأمن الاقتصادي مع تفكك الأسرة قد أسهما معا في تشكيل المزاج البارانوي النبوئي خلال عقد التسعينات ، حيث اشتدت المخاوف من بَلْقَنَةَ الولايات المتحدة وانشقاقها إلى مجموعات عرقية متنافرة ، وهو هاجس أصبح يطوّق حياة الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة الدنيا، وهما يشكلان نصف المجتمع الأمريكي، فأعضاء هاتين الطبقتين يفقدون وظائفهم بصفة مستمرة ومن ثم يسقطون فريسة للتيار الديني الأصولي.. إنهم يوجهون أصابع الاتهام إلى السلطات الفدرالية ويعتبرون الإدارة الأمريكية هي المسؤولة عن سوء إدارة الاقتصاد، كما يوجهون اللوم – بنفس القدر – إلى غول التكنولوجيا الحديثة التي أسهمت في خلق الارتباك الاقتصادي وأصبحت بذلك عاملا أكيدا في انتشار المزاج البارانوي ؛ حيث أصبحت الآلة تحلّ مكان الإنسان في المصانع..

هنا يلفت نظرنا "داميان تومسون" في كتابه "نهاية الزمن" إلى حقيقة أخرى مهمة حتى لا يتسرب إلى ظننا أن اليمين الأمريكي المتطرف مجموعة من الجهال أو ناقصي التعليم بل على العكس من ذلك تماما ؛ فهؤلاء الناس من محترفي تجميع المعلومات، حيث يقضون معظم أوقاتهم يتفحصون الصحف والمجلات والأناجيل والكتب الأخرى . ويدمنون زيارة المواقع الكثيرة في شبكة الإنترنت التي تبث الشائعات والنبوءات المستندة إلى تأويلات إنجيلية/توراتية ؛ مما يجعل هذه الشبكة مصدرا هائلا لدعم أصحاب نظريات المؤامرة...

في تحليلنا للمزاج الأمريكي السائد نود أن نلقي الضوء على النقاط المهمة التالية:

أولاً: لاشيء يقلق سلطات الأمن الأمريكية أكثر من نمو حركات من يطلق عليهم "الألفيون" الذين يبثون أفكارهم النبوئية خلال شبكة الإنترنت، وكانوا من قبل يشكلون مجموعات أو مليشيات منعزلة لا يكاد الجمهور يشعر بوجودها إلا عندما تتفجر أحداث عنف كبيرة مثل الهجوم على مبنى المخابرات العامة المركزية في أوكلاهوما ، وعمليات

المواجهة التي نتج عنها كارثتا "واكو" و "روبي ريدج" في التسعينات، حيث جرى عليهما تعتيم إعلامي ووصفتهما التقارير الأمنية بأنهما عمليات انتحار جماعية...

والألفيون – باختصار – هم الذين يؤمنون بأن نهاية العالم أصبحت قاب قوسين أو أدنى وأن تجلياتها مع شروق مطلع القرن الواحد والعشرين تتعاظم بشكل متسارع، وأن أبرز هذه التجليات يتمثل في تدفق يهود العالم إلى الأرض المقدسة [في فلسطين] باعتباره شرطا أساسيا لعودة المسيح الثانية إلى الأرض، ليحكم العالم من القدس لمدة ألف عام ينشر فيها العدل والسلام والمسيحية.

ثانيا: مع اقتراب حلول الألفية الثالثة اشتعلت شرارة الحماس الديني في الأوساط البروتستانتية الأصولية، وظهر في الولايات المتحدة صحوة دينية لم يسبق لها مثيل، حيث انخرطت الكنائس في نشاط تبشيري محموم يستهدف تنصير أكبر عدد من البشر وإعادة المسيحيين المارقين إلى حظيرة الإيمان..

وكان من نتائج هذا النشاط نشوء ظواهر جديدة في المجتمع الأمريكي مثل ظاهرة "المسيحيين العائدين" .. عرفنا منهم شخصيات كبيرة في قمة السياسة الأمريكية كالرؤساء: جيمي كارتر ورونالد ريجان وبوش الأب وبوش الابن، تصاعد التأييد في عهودهم للكيان الصهيوني والعداء للعرب والمسلمين إلى المستوى المذهل الذي نشهده اليوم .. فلا ينبغي أن نهمل هنا الأصابع الخفية للصهيونية العالمية التي تدفع المسيحيين من وراء ستار لحرب شاملة على الإسلام والمسلمين ..

ومن الظواهر الأخرى استحداث الكنائس لوسائل جديدة في التبشير المكثف، وتبنِّيها لممارسات تعبُّدية غريبة لاجتذاب الجماهير ؛ إذ توحي لرعاياها في الصلاة بتجلي الروح القدس عليهم واتصالها بهم اتصالا شخصيا يستشعرونه عندما تتدفق في أرواحهم كتيار سحري مفعم بالبهجة والسعادة وتستجيب أجسادهم بالرعشة والانجذاب والخفة فتصدر عنهم صيحات غريبة وقهقهات كضحك الأطفال الذين تداعبهم أمهاتهم ؛ حتى يستلقون على الأرض من فرط الانفعال.. وفي غمرة البهجة الروحية تنطلق ألسنة المتعبدين بلغات لم يعتادوا التحدث بها من قبل، وتحل في أجسادهم الروح القدس فتبرئهم من العلل والأسقام والأمراض المستعصية التي لم يجد الطب لها علاجا.

بهذه الطريقة تجتذب الكنائس أعدادا كبيرة من البشر الهاربين من الخواء الروحي والاضطرابات النفسية والقلق الاجتماعي، الذين يتطلعون إلى بعض نسمات من النشوة الروحية والتخلص من الآلام والأمراض "النفسجسدية" التي تنغص حياتهم.

أما سر هذا النشاط الديني المحموم فهو أن هؤلاء الناس جميعا يعتقدون أن عودة المسيح قد حان أوانها وأن احتمال وقوعها في زمنهم احتمال مرجح، وهم يريدون أن يقدموا خيرًا يؤهلهم للخلاص ورضاء المسيح عنهم وصحبته في ملكوت السعادة الأبدية؛

لذلك يسابقون الزمن ويشمرون عن سواعد الجد في هذه الفسحة الضئيلة من الزمن الذي يوشك على نهايته!

ثالثاً: برهنت كارثتا "واكو" و "روبي ريدج" على أمرين: برهنت للسلطات الأمريكية أن العنف أصبح إمكانية واردة مع ازدهار وتشعب الجماعات والمليشيات المسلحة، خصوصا أولئك النبوئيون المتطرفون في المجتمع الأمريكي.. وبرهنت لهذه الجماعات على صحة عقائدهم، لأن التدخل المسلح من جانب السلطات في حد ذاته متوائم مع التوقعات التقليدية الواردة في نبوءاتهم، ويبدو هذا أكثر وضوحا عند جماعة معروفة باسم "ما بعد الكارثة" كما يسمون أنفسهم أيضا باسم "الفرقة الناجية"، هؤلاء يؤمنون بأن عليهم أن يقاتلوا قتالا طاحنا خلال فترة الاضطراب العظيم الذي سيحل بالأرض كإرهاص ومقدمة لعودة المسيح...

(تزايد عدد المليشيات الانفصالية في الريف الأمريكي المحافظ حتى بلغ وفقا لبعض التقديرات ثمانين ألف عضو انضم معظمهم إلى هذه المليشيات خلال عامين اثنين بين مجزرة واكو ١٩٩٢م وتفجيرات أوكلاهوما١٩٩٤م).

تعاظم نشاط هذه الجماعات والمليشيات خصوصا في شمال الغرب الأمريكي على طول ساحل المحيط الهادي، وهي مناطق غابات توفر ملاذات آمنة وحصينة لهذه الجماعات الثورية الانعزالية من اليمين المتطرف.

يقول داميان تومسون في كتابه "نهاية الزمن" في تصنيفه لهذه الجماعات: "إنهم يمثلون تفكيكا لثلاثة مدارس فكرية: "النازيون الجدد" ، و "المسيحيون الوطنيون" الذين يستشهدون بالإنجيل والدستور الأمريكي ، وإلى جانبهم يوجد عشرون ألف عضو في حركة تعرف باسم "الهوية المسيحية" تقف عقيدتهم في موقع ما بين النازيين والوطنيين، ويؤمن هؤلاء بأن الآريين البيض هم الأحفاد الحقيقيون المباشرون للقبائل الإسرائيلية القديمة.. ويستطرد داميان تومسون فيوضح لنا أن هذه الاختلافات الأيديولوجية لا تمثل حاجزًا حقيقيًّا عند هذه الجماعات من الناحية العملية ؛ ذلك لأن العنصر المشترك والحاسم كمؤهل للالتحاق بها هو الشعور المشترك باقتراب نهاية العالم.. والخوف من أن يقع العالم في أيدي القوى الشريرة.. وعلى رأسها الإسلام والمسلمون..! ..

لقد شهدنا نوبة من نوبات البارانويا العاتية في عهد "جورج دبليو بوش ونائبه" "ديك تْشيني" ، وما نتج عنها من أهوال في أفغانستان والعراق ، ونتوقّع أن نشهد نوبة أعتى في زمن الالتحام الصليبي الصهيونيّ الذى بلغ ذروته بين "دونالد ترَمْب" و "بنيامين نتنياهو" ، تساندهما عصابة من الأتباع والخونة من صهاينة العرب في مقاعد السلطة ، ينفذون المخططات الأمريكية-الإسرائيلية في مصر ودول البترول بكل أبعادها: السياسية والعسكرية والفكرية والعقدية على السواء..! (أنشر هذا المقال بجريدة الشعب في ٦مايو ٢٠١٧م)